الخطب المنبرية

لفضيلة الشيخ الدكتور

محمد هشام طاهري

(حفظه الله تعالى)

خطبة الجمعة بعنوان

الصبر على أقدار اللّه

بتاريخ/ ١٥ شوال ١٤٤٤هـ الموافق/ ٥-٥-٢٠٢٣

خطبة الجمعة

الصبر علىٰ أقدار الله

الحمد لله رب العالمين يفعل ما يشاء وهو خالق السماوات والاراضين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المعبود بحق وأشهد أن محمد عبده ورسوله المرسل بالصدق صل الله عليه وعلىٰ آله وصحبه ومن سار علىٰ نهجه وأقتفىٰ أثره إلىٰ يوم الدين.

أما بعد عباد الله:

إن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثةٍ بدعة وكل بدعةٍ ضلالة وكل ضلالة في النار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢]

أيها المؤمنون:

إن الله جَلَّوَعَلَا لم يزل خالقًا عليما متفردًا حكيما خلق الكون فأحسنه دبر الأمور فأتقنها رتب مقادير الخلائق ودبرها ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ٢﴾ [الفرقان: ٢] وكم يثق الولد بتدبير أبيه ولا يرىٰ في تصرفه إلا الحُسن وكم تثق الرعية بتدبير الملك أو الأمير إذا كان عادلا ولا يرىٰ في عمله إلا الحُسن فكيف بخالق الأكوان! فكيف بتدبير رب الأرض والسماء! ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩﴾ [القمر: ٤٩] إن الله جَلَّوَعَلَا يبتلي عباده في بابين: بابٌ ينجح فيه كثير من الناس باب الأمر والنهي صومٌ وصلاة زكاةٌ وحجٌ وتلاوةٌ للقرآن باب التعامل مع قدر الله

عَزَّوَجَلَّ وأنت إن فتشت في هذا الباب مهما فتشت تجد بعض الطائعين فضلًا عن العاصين والفاسقين والظالمين تجدهم علىٰ قدر الله متضجرين وحال لسانهم أو حال مقالهم أو حال فعالهم أنهم يقولون: لما فلانٌ طويل ولما لست بكذا ولما فلانٌ كذا ولما أنا كذا ولما يجري كذا، وينسىٰ قوله جل في علاه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]

عن عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم فقال له: أكتب قال: ربِ وماذا أكتب؟ قال: أكتب مقادير كل شيءٍ حتىٰ تقوم الساعة" [رواه أبو داوود والترمذي وصححه الألباني]

فالله عَزَّوَجَلَّ قد كتب المقادير لونك وشكلك ميلادك ووفاتك صحتك وعافيتك فالناس يجرون في فضله وعدله وفضله أعظم وأشمل ذلك لأنه مشمولٌ بالرحمة وعدله الأقل فلو تأملت في أحوال نفسك وجدت العافية في أزمنةٍ مديدة والمرض في زمانٍ يسير وجدت الكفاية في أزمنةٍ كثيرة والعِوز والحاجة في زمنٍ يسير وجدت أنك جمعيٌ في أزمنةٍ كثيرة والانفراد في أزمنة يسيرة وعلىٰ ذلك فقس ما من عبدٍ إلا وهو دائرٌ بين الفضل والعدل فسأل الله من فضله وظن به ظنًا حسنًا وإياك وظن السوء وأعلم أن من أظم ما يتفاضل فيه الناس الظن الحسن بالله ومن ذلك الظن الحسن بقدره.

يقول عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالىٰ عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول: كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة" [رواه مسلم]

فما أنت عاملٌ مع هذا القدر المكتوب مسبقا أن تنظر إلىٰ شرع الله فتطبق الصفحة الشرعية مع الصفحة القدرية فتكون أنت الفالح والناجح إذا أُنعم عليك تشكر وإذا ابتليت تصبر، بل وترضىٰ، بل وتشكر سمىٰ الله نوحًا عبدًا شكورا لماذا؟ ما تضجر وما قال: إلىٰ متىٰ وأنا أدعوا، ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا وما قال يومًا يا رب إلىٰ متىٰ أدعوا! إنما يتعامل بقدر الله عَزَّوَجَلَّ يتعامل في قدر الله بشرع الله ينظر أنه مأمورٌ بالدعوة فيدعوا لا ينشغل إلىٰ متىٰ! لأنه عبدٌ موظفٌ لأنه عبدٌ مأمور فأنت ينبغي عليك أن تحسن الظن بربك وأن تسأل الله من فضله وأن تعلم أن قضاء الله وقدره خيرٌ لك من تقديرك وخير لك من طلبك وإلحاحك: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢﴾ [الحديد: ٢٢]

﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ أي من قبل أن نوجدها ونخلقها.

كورونا بقدر الله الأمراض بقدر الله وإن كان السبب المباشر له قد يكون عبدًا قد يكون العباد لكنه بقدر الله جَلَّوَعَلَا : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [الصافات: ٩٦]

وقال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ [التغابن: ١١]

نعم ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله فهذا نبي الله إبراهيم يهان ويطرد من وطنه بإذن الله يستغرب من ذلك لكنه لا يعلم ما هو الذي سيكون مستقبلا لكن نبيٌ لا

يتضجر فوجد خيرًا من ذلك كان ممن سكن القبلتين بيت المقدس ومكة وبنىٰ مكة بأمر الله جَلَّوَعَلَا قد تجد الأمر سوءً فهذا يوسف ألقي في الجب ثم السجن وإذا به بعد سنين يقول لأخوته: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠]

وهذا موسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ قتل القبطي خطأً فاضطر أن يهرب لكن ما تضجر تعامل بقدر الله تعامل في قدر الله ومع قدر الله بشرع الله: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: ٢٤] فجعل له مأوىٰ ومسكن وملبس ومشرب وزوجة فلما رجع وجد النبوة والرسالة والرفعة علىٰ فرعون وقومه أغرقهم الله وأنجاه فتأمل في قدر ألست تقرأ القرآن كيف يدخل الضجر في قلبك علىٰ ألمٍ أصابتك ومصيبةٍ أصابتك أما تعلم أما تسمع في كل جمعةٍ والخطيب يقول: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴿٢﴾ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴿٣﴾﴾ [الأعلىٰ: ١-٣]

من المقدر من الهادي؟ إنه الله.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [التغابن: ١١]

هذا حال المؤمنين الكُمل ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴿١١﴾﴾ قال علقمة: في تفسير الآية هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضىٰ ويسلم فالمصائب والمِحن ابتلاءات اختباراتٌ يرفع الله في هذا الباب مقام من شاء كما رفع مقام الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء والصالحين ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١]

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ [التوبة: ١٦]

ويعلم الصابرين، فباب المجاهدة شرعيٌ وباب الصبر قدريٌ ما أنت فاعلٌ فيهما إن المؤمن بالله حق الإيمان عباد الله من إذا أصابته مصيبه أظهر الرضىٰ وأحتسب الأجر؟ وأحسن من ذلك أن يظهر الرضىٰ وأحسن من ذلك أن يظهر الشكر وأقل ذلك الصبر، يقول بعض أهل العلم ذنبٌ أذنبته أنا أبكي عليه ثلاثين سنة قيل: وما هو؟ قال: قلت لشيءٍ قضاه الله ليته لم يقضه أو ليته لم يكن.

وقال بعض السلف: لو قُرض لحمي بالمقاريض كان أحب إلي من أن أقول لشيءٍ قضاه الله ليته لم يقضه، وكثير لا أقول قليل كثير من الناس مع الأسف إذا سمع أن فلانٌ مرض أو عمل حادث أو أبتلي ببلاء يقول: الله ما يستاهل من أنت حتىٰ تقول: ما يستاهل هذا قضاء الله وقدره رب العالمين يبتليه لحكمة وأنت تتضجر لجهلك بالحكمة يا مسيكين قل: قدر الله وما شاء فعل قل: قدَرُ الله وما يشاء يفعل يقول ﷺ: إن عِظم الجزاء مع عِظم البلاء وإن الله عَزَّوَجَلَّ إذا أحب قومًا ابتلاهم، أحب نوح فابتلاه بصد قومه، أحب إبراهيم فابتلاه بالهجرة وترك الوطن، أحب محمد ﷺ فأتىٰ عليه بالمصائب المقدرة التي يعجز عن حملها الرجال.

يقول ﷺ: إن في حديث أنس بن مالكٍ إن عِظم الجزاء مع عِظم البلاء" [رواه بن ماجة والترمذي وصححه الألباني]

يقول أبو سعيدٍ الخدري: دخلت علىٰ النبي ﷺ وهو يوعك فوضعت يدي عليه فوجدت حره بين يدي فوق اللحاف فقلت يا رسول الله: ما أشدها عليك قال:

إنا كذلك يضاعف لنا البلاء ويضعف لنا الأجر قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاءً؟ قال: الأنبياء قلت: يا رسول الله ثم من؟ قال: ثم الصالحون، إذا كان أحدهم ليبتلي بالفقر حتىٰ ما يجد أحدهم إلا العباءة يجوبها وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء" [رواه بن ماجة وصححه الألباني]

يقول العلامة بن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الرضا من أعمال القلوب الرضا بالقضاء من أعمال القلوب نظير الجهاد من أعمال الجوارح فإن كل واحدٍ منهما ذروة سنام الإيمان فالرضا ذروة سنام الإيمان القلبي والجهاد ذروة سنام الإيمان العملي.

يقول أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ذروة سنام الإيمان الصبر للحكم والرضىٰ بالقدر.

عباد الله:

مما يعين علىٰ الرضا بالقضاء العلم بالمقدر جل في علاه، العلم بأنه الحكيم العلم بأنه سبحانه يفعل ما يشاء في عبيده ألست أنت تأمر مخدومك تأمر خادمك أن يذهب ويأتي ويقوم ويجلس ويفعل، ويفعل، ويفعل، ويفعل، ولا يسأل المسيكين لما فأنت عبدٌ لله مملوكٌ له يفعل بك ما يشاء وهو الحكيم العليم، يقول بن مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قال النبي ﷺ: ما من مسلمٍ يصيبه أذىٰ إلا حات الله عنه خطاياه كما تحات ورق الشجر" [رواه البخاري ومسلم]

وفي حديث أبي سعيدٍ وأبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا ما يصيب المؤمن من وصبٍ ولا نصبٍ سقمٍ ولا حزنٍ حتىٰ الهم يهمه إلا كُفر به من سيئاته" [رواه مسلم]

وفي حديث سعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ قال: فما يبرح البلاء بالعبد حتىٰ يتركه يمشي علىٰ الأرض ما عليه خطيئة" [رواه الترمذي وقال حديث حسنٌ صحيح]

أيها المؤمنون:

تأملوا قوله جل في علاه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]

بارك الله لي ولكم في القرآن الكريم ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم أقول ما سمعتم وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له هو ولي الصالحين وأشهد أن محمد عبده ورسوله الصادق الأمين صل الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه الغر الميامين.

أما بعد:

فأوصيكم ونفسي بتقوىٰ فمن اتقىٰ الله، وقاه، ونصره، وكفاه.

أيها المؤمنون:

يجب علىٰ من أصيب بشيءٍ من أقدار الله المؤلمة أن يلجئ إلىٰ خالقه وأن لا يشتكي قدره لمخلوقين مثله إلا بالقدر الشرعي كشكاية المريض للطبيب للمعالجة ليس إلا وكشكاية الفقير للغني لأخذ الزكاة ليس إلا ولنستيقن بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾ [يونس: ١٠٧]

ويقول جل في علاه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣﴾ [الأنفال: ٣٣]

وهذا أيوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤]

وطُرد أبونا آدم من الجنة ولجئ إلىٰ ربه وإذا به وإياها يقولان: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف: ٢٣]

فالأمل جاء في التعامل مع قدر الله إلا بالله وهو من معاني قوله تعالىٰ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [الذاريات: ٥٠]

من الأدعية التي تفرج الكروب دعاء ذي النون يقول ﷺ في حديث سعد: دعوة ذي النون إذ دعىٰ وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء: ٨٧] فإنه لم يدعوا بها رجلٌ مسلمٌ في شيءٍ قط إلا استجاب الله له" [رواه الترمذي والحاكم وصححه]

فالدعاء سببٌ يدفع البلاء ولا ينبغي علىٰ العبد أن يعلم أن تعامله في أقدار الله بشرع الله خير له من تعامله بعاطفته أو بعقله فإن العاطفة هياجه والعقول ضياعه

والنصوص الشرعية هي التي تقوم الإنسان وترفع مكانته عند الرحمن ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠﴾ [الذاريات: ٥٠]

اللهم صل وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه الأبرار وأرضىٰ اللهم عن الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعن سائر الصحابة والـ آل الأطهار، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الأخرة حسنة وقنا عذاب النار، اللهم أعز الإسلام والمسلمين وأذل الشرك والمشركين وأغفر اللهم لنا ولوالدينا وللمسلمين الأحياء منه والميتين، اللهم أرزقنا فضلك، اللهم أرزقنا فضلك، اللهم أرزقنا الشكر عند الرخاء والصبر والرضا عند البلاء والتوبة والاستغفار حال الذنب يا رب العالمين، اللهم أجعل هذا البلد أمنًا مطمئنًا سخاءً رخاء دار عدلٍ وإيمانٍ وسائر بلاد المسلمين، اللهم وفق ولي أمر البلاد لما فيه صلاح العباد والبلاد.